AL HAYAT الحياة
الجمعة ٢٠ حزيران (يونيو) ٢٠٠٣ الموافق ٢٠ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ/ العدد ١٤٦٩٧
AL HAYAT FRIDAY 20 JUNE 2003 ISSUE NO 14697

الحق في المقاومة حين يتقدم على الحق في الحياة

محمود الريماوي *

■ انشغل معلقون وأهل سياسة مشرقيون في الأسابيع القليلة الماضية بـ«خريطة الطريق» وهي خطة دولية وضعها الأوروبيون في خريف العام الماضي، وحظيت بقبول وتبنّ اميركيين بعد عرضها على الطرفين المعنيين الإسرائيلي والفلسطيني، وبعد مداولات شاركت فيها مصر والأردن والسعودية.

وحمل على وضع الخطة الوضع المأسوي في الأراضي الفلسطينية، وانسداد آفاق التفاوض بين حكومة شارون (الأولى) والسلطة الفلسطينية، خصوصاً بعد العزل الذي تعرض له رئيس السلطة ياسر عرفات. وكما هي حال بقية مشاريع التسوية، حظيت هذه الخطة بقدر غير يسير من الهجاء والتخطئة، على رغم انها الخطة الدولية الأولى التي تحدد سقفاً زمنياً لإقامة الدولة الفلسطينية في منتصف سنة ٢٠٠٥، كما تتضمن هذه الخطة وقف الأعمال العسكرية وشبه العسكرية ووقف التحريض من الجانبين. وجرت مناشدة ونصح ابناء الضفة الغربية وقطاع غزة ومن يمثلهم من قبل معلقين وساسة كثر بعدم الوقوع في حبائلها، وذلك جرياً على منطق عروبي سديد يقول بأن الممثلين الفلسطينيين يسارعون عادة للقبول بالمشاريع المتهافتة، خلافاً للساهرين على صيانة الحقوق الثابتة، ممن لا تنطلي عليهم مناورات الحل الجزئي المنفردة.

وليس الغرض هنا تفنيد هذه الدعاوى، التي تقوم في اساسها ومنتهاها على تصفية حسابات التزاحم على تسنم المراتب الوطنية والقومية، وتسفيه من يفترض انهم منافسون على صدارة «حركة التحرر العربية» ورميهم بأقذع النعوت، التي توفرها ترسانة لغوية لجوجة لا تتبدل مقارباتها وألفاظها. لكن الهدف هو الإشارة الى نمط من عروبة جديدة، لا تبالي بآلام البشر وصنوف معاناتهم، وتفتقد الحساسية الى حاجة هؤلاء الى وضع مخارج وتدابير ترمي احياناً الى الدفاع عن الحق في الحياة، امام عدو عنصري لا يتردد في انتهاج طريق التطهير العرقي والمضي فيه، واجتذاب السند الإقليمي والدولي لتوسيع هامش الحركة السياسية، استناداً الى ان قوة الضعيف والمستضعف في الأساس وهي قوة معنوية وسياسية وقانونية وأخلاقية.

على ان المنتقدين وقد هال بعضهم استئناف الاهتمام الدولي بالحلول السياسية، لا يجدون ما ينتقدون به الخطة والقبول بها سوى تهديدها للحق في المقاومة، التي لا تنتقل من وسيلة وأداة الى غاية وهدف بحد ذاته فحسب، بل ان شرف الشعب يغدو منوطاً بها حصراً. والمقاومة في هذه الحال هي كل نشاط عنفي ومسلح اياً كانت الظروف، ومهما عظمت التضحيات ومهما غلا الثمن، اما النشاط السلمي والبناء الاقتصادي والاجتماعي والصمود السياسي، فلا يعتبر عند المنتقدين من المقاومة في شيء، حتى لو حقق نتائج وأدى الى مكتسبات.

تغدو بذلك المقاومة مطلوبة لذاتها وكأنها وثن يعبد، بصرف النظر عن الحال الذاتية والبيئة السياسية ومعايير الربح والخسارة. بل كذلك بقطع النظر عن الاستعداد الذاتي والظروف العيانية. فحين يتم هدم بيت لأحد قاطنيه الفقراء ويجري زج الأبناء في المعتقلات ويتم فقد مورد الرزق، فإن الرد على ذلك لا يكون بالسعي لتوفير سقف يؤوي الفقير وعائلته، بل بدعوته لامتشاق السلاح حتى تنقطع لديه كل اسباب الحياة والبقاء.

وحين تسوء الحال الاقتصادية والاجتماعية نتيجة عسف الاحتلال ووحشيته، فإن معالجة هذه الحال البائسة توكل الى الصليب الأحمر ووكالة الأونروا. ولا يجرى التفكير ويجب ألا يجرى لإعادة بناء ما تهدم وتنشيط مرافق الحياة وبعث الإدارات.

والسعي خلال ذلك وقبله الى التماس كل السبل لشل آلة الحرب الإسرائيلية وكف يد الأذى، عبر الجهد السياسي والديبلوماسي.

وعليه فإن الحق في المقاومة يتقدم على الحق في الحياة، وفق تخريج مفاده ان الحياة والمقاومة صنوان لشعب يرزح تحت الاحتلال، من دون النظر الى خصوصية هذا الاحتلال وإلى افتقاد المقاومة الموارد والإسناد، والحاجة الى مقاومة سياسية ومدنية وقانونية وإعلامية تحد من الخسائر.

ولأن «خريطة الطريق» تشق الطريق الى تحقيق هذه الأهداف، وتطلق دينامية سياسية، فإن المنتقدين لا يرون فيها إلا جانب حجب الحق في المقاومة، وكأن هذا الحق لم يمارس من قبل على مدى اربعة عقود. وكأن شيئاً لم يتغير مع انبعاث اول كيان وطني معترف به على أوسع نطاق دولي، فيما شروط بقاء هذا الكيان ونموه مرهونة في جانب اساس منها بالدعم الدولي السياسي والاقتصادي، وأن الصيرورة الفلسطينية تحتم تعظيم فرص هذا الكيان في الاستقرار والنمو والإصلاح الدائم، وهو ما يفسر شعار شارون الذي استهدف اول ما استهدف مؤسسات مرافق السلطة، قبل ان ينصرف الى محاولة تصفية الوجود العسكري لـ«حماس» و«الجهاد».

ومع ذلك تعرضت هذه السلطة الوليدة لمختلف اشكال التشهير وتطوع من تطوع لتلقينها الدروس في الوطنية، بعد صمودها ٣٣ شهراً امام قصف يومي، لم تتعرض له دولة او نظام عربي من قبل.

شيء مثل ذلك يخاطب به العراقيون، الذين يجب ان يثبتوا للمنتقدين الغيارى جدارتهم الوطنية، بسلوك طريق مقاومة القوة المحتلة العظمى، بعد ثلاث حروب مدمرة و١٢ عاماً من الحصار المطبق، وأكثر من ٣٠ عاماً من الديكتاتورية الماحقة.

ويسمح هؤلاء المنتقدون لأنفسهم وأحزابهم وأجهزة دعايتهم بالنطق باسم شعب آخر وادعاء تمثيل مصالحه العليا، وأن يرسموا له اجندته السياسية الواجبة الاتباع وكشرط شارط للتضامن معه. اما ما يكابده شعب من الشعوب كما هي حال العراقيين والفلسطينيين (ابناء الضفة الغربية وقطاع غزة)، فذلك مجرد عرض من الأعراض الزائلة التي لا تستحق التوقف عندها. وكذلك الحال في ما يمكن ان تسببه مقاومة مسلحة فورية، من خسائر وأضرار وتصديع للبنى الاجتماعية ومضاعفة المعاناة، وتأخير الحلول وتعقيد السبل المؤدية لها.

إن ذلك لا يخطر ببال المنتقدين، الذين نصبوا انفسهم مرشدين للشعوب وحاملين للبوصلات الهادية، من مثقفين عضويين وألسنة احزاب إسلامية وقومية، الذين لا يرون في مسلسل المعاناة الهائلة سوى مادة للاتجار بالإحباط وإثارة المزيد منه، مع إنكار حق الشعوب و«الشقيقة» في رسم طريقها وخرائطها، على هدي من اوضاعها المخصوصة وحاجاتها المتعينة وإبداعها الذاتي، الذي قد لا ينطبق مع ارتسامات «الكاتالوغات» الثورية، التي بليت من فرط قدمها وانقطاعها عن البيئة السياسية الجديدة.

* كاتب اردني.

«حماس» و«حزب الله» في ظروف مختلفة

عسكرة الانتفاضة وثاراتها ... ضوابط ونظم مطلوبة في هذه المرحلة

منتصر الزيات *

■ تحتاج حركة «حماس» بكل تأكيد في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها قضية الصراع العربي - الصهيوني إلى نصائح المحبين لها والمتعاطفين معها بالقدر الذي تحتاج فيه إلى دعمهم المادي والمعنوي. وقضية الصراع العربي - الصهيوني وعاء أشمل بكثير من «حماس» أو غيرها من حركات المقاومة داخل فلسطين تلك التي تحتل مكانة رفيعة في الضمير العربي. والقضية بتفاصيلها محفورة في جدار الأمة وذاكرتها جيلاً وراء جيل قبل أن تقوم «حماس»، وستستمر إلى أن يتسلم الراية قائد ملهم يوحد فيالق الجهاد ويدخل القدس فاتحاً ومحرراً ويعيد الحق إلى نصابه.

ليست وحدها «حماس» التي امتعضت من تصريحات أبو مازن في العقبة التي طالب فيها بإنهاء عسكرة الانتفاضة وعزلها في غزة، وإنما غالبية الرأي العام العربي رفضها ولم يشفع لأبي مازن ما يروج له خلف ستار أو يروجه له حواريوه من أنه استهدف من ورائها ورقة سياسية ورسالة يبعث بها إلى صانع القرار الأميركي ولا بأس من استخدامها فى خلفية صناعته لشخصيته المفقودة فى صناعة القرار الفلسطيني وتأهليه كقيادة مقبولة بعد عرفات، غير أن الذي أفقدها أي قدر من التفهم داخل أروقة الشعوب العربية هو البوح بها في خطاب مكسور مهزوم يلقي الضوء على أوضاع مزعومة لمعاناة الشعب اليهودي، في الوقت الذي أغفل فيه معاناة حقيقية لشعبه الذي يتجرعه غصباً على سدة الحكومة.

لكن «حماس» حينما تتحدث كثيراً في الآونة الأخيرة عن الانتقام والثأر عقب كل عملية اغتيال يتعرض لها رمز مقاوم أو اجتياح لمدينة فلسطينية مقاومة باسلة، قد يقلب المفاهيم أو «يشوشر عليها»، ويحولها من حركة تملك رؤية استراتيجية شاملة لمقاومة العدو المحتل ومن ثم تحرير الأرض وإقامة دولة مستقلة، إلى مجموعة مقاتلة تسعى إلى الثأر وتنشغل بردود الأفعال أكثر ما ترمي إلى الفعل وصناعته. والبون واسع بين حركة الكفاح المسلح والمقنن عبر منظومة مترابطة من القيم والنصوص الدينية والأعراف الدولية عبرت عنها في فترة حركة «فتح» إلى ما قبل أوسلو وتسلمت الراية «حماس» و«الجهاد الإسلامي» وبين عمليات الثأر والانتقام التي تتسم بمحدودية في آفاقها وأفق المهتمين بها. وحينما ننعى مجرد الثأر فإننا بكل تأكيد لا ننال منه ولا من الساعين إليه ولا ننكره عليهم، لكننا في الوقت ذاته نخشى أن يتحول الكفاح المسلح والجهاد الواجب للتحرير وإقامة الدولة إلى مجرد ثارات انتقامية تتأثر بمنهجية العدو المنظم وبقدراته القتالية وقبلها مشروعه التوسعي، وهو يجرها لفخ غير واضح المعالم.

كانت محاولة اغتيال الرنتيسي بما يمثله من قيمة فكرية وسياسية تعكس شموخ المقاومة وصواب أجندتها بعداً قوياً في الدلالة على غطرسة شارون ومنطقية التخوف من صدقيته، مثلما كانت محاولة اغتيال خالد مشعل من قبل دفعة قوية للنضال السياسي لحركة «حماس».

وإذا كانت المقاومة المسلحة عبر روافدها المتنوعة والتي تأتي في جانب متقدم منها العمليات الاستشهادية تحتاج إلى فهم الطبيعة التضاريسية الجغرافية للأرض ضماناً لنجاحها وإصابتها لأهدافها المنشودة نوعياً ومرحلياً، فكذلك المقاومة السياسية تحتاج إلى فهم معطيات المناخ السياسي المحيط بها ومكوناته. وإذا كان «حزب الله» في لبنان استطاع أن يوفر لنفسه غطاء عربياً ملائماً رسمياً وشعبياً ارتكن إليه في مقاومته المسلحة المشروعة، حتى استطاع أن يحقق انتصاراً كبيراً وحرر غالبية الأرض في الجنوب وبقيت مزارع شبعا، فإن حركة المقاومة داخل فلسطين، وفي الطليعة منها «حماس»، تحتاج إلى توفير قدر مناسب من الغطاء العربي على رغم أن أدواته الحالية تعاني فقراً مدقعاً فى ضوء الهيمنة الأميركية واجتياحها المنطقة بعد غزو العراق وإسقاط نظامه وتمحور قواتها داخله وعلى حدود بلدان أخرى متلاصقة، بما يعني صعوبة في التحرك تختلف عن الأجواء التي انطلق منها «حزب الله» والذي تقل معاناته الحالية عن «حماس» وأخواتها مما تحتاج معه حركات المقاومة إلى حسن تدبير أكثر رشداً وأقل أنفعالاً أو تأثراً بردود الأفعال.

بقدر ما أبدت قيادات «حماس» فى العامين الأخيرين قدرة مناسبة من المناورة والكر والفر فى ظل اجتياح صهيوني صارم لأراضي السلطة الفلسطينية وحصار عرفات ومحاولات مستميتة لدفع الأمور إلى الاقتتال الداخلي بتحقيق الفتنة، وكانت «حماس» في كل مرة حريصة على تفويت الفرصة بمنع بؤر الانفجار المأزوم للحالة الداخلية، خصوصاً أن عملية اختيار أبو مازن قد أحاطت، بما صاحبها من ضغوط دولية وإقليمية على عرفات لإنفاذه، بمدى الرهان الذي تعوّل عليه الإدارتان الأميركية والصهيونية على نجاح تحقيق الفتنة بالاقتتال الفلسطيني واشتعال الحرب الأهلية داخلياً. وفي هذا السياق ربما جاءت مطالبات أبو مازن الشهيرة بإنهاء عسكرة الانتفاضة ومن المنطقي أن ترفضها «حماس» في شكل مطلق وبقية حركات المقاومة الأخرى.

نقول أيضاً لـ«حماس» وننصح بضرورة تحرير خطابها السياسي من الإنشاء والقوالب الحماسية، بما يتيح لها حسن مواجهة اتهامات أميركية عنيفة ضدها تصمها بالإرهاب ودعوتها السلطة الفلسطينية الى اتخاذ إجراءات وتدابير حاسمة من أجل تفكيك «حماس» و«الجهاد الإسلامي»، بل ما تمارسه الإدارة الأميركية من ضغوط عنيفة على الدول العربية من أجل «إنهاء» الدور الذي تلعبه «حماس» ما دفع السودان إلى استعداده إغلاق مكاتب «يحماس» في الخرطوم !! إننا لا نغفل بالتأكيد أهمية الدور المعنوي للتواصل مع عواطف الشعب الفلسطيني داخل الأراضي المحتلة كما ينبغي التواصل مع الشعب العربي في كل مكان، وإنما نود توازناً معقولاً وخيطاً ممتداً بين الجهاد المسلح والخطاب الإعلامي والسعي الديبلوماسي.

إننا بكل تأكيد مع الصمود والشموخ في معالجة هذه «الاتهامات الأميركية المنحازة»، لكننا أيضاً مع ضرورة تحرك مضاعف سياسي وإعلامي وفكري عبر منافذ أوروبية وأخرى عربية شعبية تخترق الحصار الأميركي العنصري، فلا شك أن حالة الاستسلام العربية الرسمية للاتهامات الأميركية الزائفة ضد العراق عن امتلاكه أسلحة دمار شامل لتبرير الغزو لم تمنع دولاً أوروبية عريقة من مجافاة المنطق الأميركي - البريطاني المغلوط، وحالت دون إصدار قرارات من الأمم المتحدة تضفي مشروعية على قرصنة التحالف، وخرجت التظاهرات المليونية فى كبريات العواصم الأوروبية ترفض الحرب على العراق.

وبعد كتابة مقالي جاءت الأنباء عن العملية الاستشهادية الجديدة التي قامت بها كتائب عز الدين القسام الجناح العسكري لحركة «حماس» داخل القدس حينما تنكر الاستشهادي الفلسطيني بزي رجل دين يهودي وقام بتفجير نفسه داخل أحد الباصات أسفرت عن مقتل قرابة ستة عشر إسرائيلياً وجرح أكثر من خمسين آخرين، ثم تفجرت الأحداث على النحو الذي نرقب مستجداته ساعة بساعة. والذي أحب أن أشير إليه أن استمرار حركات المقاومة داخل الأراضي المحتلة في عملياتهم الاستشهادية هو مما لا نخالفهم فيه. بالعكس نراها دليلاً الى حيوية الشعب الفلسطيني وقدرته على إفراز استشهاديين باستمرار وإلحاق الضرر بالمجتمع الصهيوني وقوات الاحتلال، غير أن ما نرمي إليه هو أن تصب مثل هذه العمليات داخل منظومة استراتيجية متكاملة عسكرياً وسياسياً وديبلوماسياً، مع رجاء أخير لقادة المقاومة بعدم نشر أسماء الاستشهاديين لتفويت الفرصة على العدو بهدم منازل أسرهم وتشريد ذويهم. اقتراح يحتاج لرعاية أكثر من نسبة العملية لهذا الفصيل أو ذاك، مدنيين أم عسكريين!!

نقلت وكالات الأنباء أخيراً عن صحيفة صهيونية نتائج استطلاع للرأي ذهب خلاله معظم الشعب الإسرائيلي إلى أن توقيت محاولة اغتيال الدكتور عبد العزيز الرنتيسي أحد أبرز قياديي «حماس» كان موفقاً، بمعنى أنهم يوافقون على الاغتيالات، ما يفتح الباب مجدداً عن جدوى التفرقة بين العسكريين والمدنيين عند تقويم عمليات المقاومة الفلسطينية؟!

* محام مصري وكاتب إسلامي.

هشاشة المعادلة في الشرق الأوسط ... و«ضرورة» الاتفاق

علي العبدالله *

■ كشفت المجابهة الدامية بين الفلسطينيين وقوات الاحتلال الاسرائيلي هشاشة المعادلة السياسية التي أفرزتها قمتا شرم الشيخ والعقبة. فالإدارة الأميركية التي تخيلت بعد احتلالها العراق، انها أمسكت بأوراق القوة في الاقليم، وأن مكانتها الجديدة تسمح لها بدفع طرفي الصراع الفلسطيني - الاسرائيلي الى العودة الى طاولة المفاوضات من دون عقبات، اكتشفت ما يسميه الباحثون الاستراتيجيون «عجز القوة»، وهزال تصورها لمسيرة ناجحة بلا مشكلات. فالقاتل شارون ليس على النغمة نفسها. انه يرى اسرائيل شريكاً في النصر الأميركي في العراق وهذا يسمح لها بالحصول على مكاسب النصر، لذا جاءت محاولة اغتيال الدكتور الرنتيسي لطمة لسياسات بوش تعبيراً عن عدم رضا القاتل شارون عن نتائج قمة العقبة التي اضطرته الى قبول خطة «خريطة الطريق» وتقديم «تنازلات» الى الجانب الفلسطيني.

رافق هذه السياسة تحرك داخل الولايات المتحدة قام به التيار المسيحي الصهيوني - قاعدة الرئيس الأميركي الانتخابية - وجماعات الضغط اليهودية التي تؤمّن تصويت اليهود له، ضد الضغط الأميركي على اسرائيل واعتبار خطة «خريطة الطريق» خطراً على أمن اسرائيل وربط تبنيها باعتبارات غير أميركية (دعم بلير، ارضاء أطراف دولية وعربية... الخ).

محمود عباس، أو موسى العلمي كما وصفه معلق اسرائيلي (موسى العلمي فلسطيني حاولت بريطانيا تلميعه وتسويقه لاحتواء نفوذ الحاج أمين الحسيني ولم تنجح) يفتقر الى سلطة فعلية لأسباب كثيرة: خياره الديبلوماسي الصرف لا يحظى بشعبية في الشارع الفلسطيني، المخاطر التي يمكن أن تترتب على استخدام القسر في سحب سلاح الفصائل الفلسطينية المعارضة، ووقوف الرئيس ياسر عرفات على مسافة من خياره، وهذا يفقده ثقل الرئيس عرفات الأدبي والسياسي.

الرئيس عرفات الذي عملت واشنطن على تهميشه واسقاطه عاد الى واجهة الأحداث كلاعب رئيس، إذ أكدت المجابهة وتداعياتها انعدام صدقية التحرك السياسي، نتيجة تغييبه عن المشهد السياسي، واستحالة تجاوزه لأن مكانته الفلسطينية جعلت موقفه ضمانة للحقوق الوطنية الفلسطينية وجواز مرور لأي اتفاق سياسي ممكن.

أما الدول العربية التي حضرت قمة شرم الشيخ وقدّمت الى الرئيس الأميركي أرضية مناسبة لفرض ارادته على الجانب الفلسطيني، باعتبارها أسقطت الفارق بين المقاومة والارهاب واعتبرت كل عمل «عنيف» مهما كانت مصادره ودوافعه ارهاباً، وقررت محاربة ثقافة العنف والتطرف وتجفيف موارد المنظمات الفلسطينية المعارضة المالية، فليس لديها الصدقية أو الشرعية التي تسمح لها بفرض الرؤية الأميركية على الفلسطينيين وتسويقها في الشارع العربي، حيث ما زالت المأساة الفلسطينية المظلمة الأبشع في التاريخ العربي والتي يُحدّد الموقف منها موقع أي نظام أو حزب أو شخص.

لذا أصبحت اعلانات الرئيس الأميركي حول خطة «خريطة الطريق» والتزامه رؤية الدولتين ووضع ثقل أميركا في عملية السلام - التزام فاق، وفق بعض المعلقين، التزام الرئيس الأميركي السابق - وما أثارته من ايجابيات، بسبب عدم تحديد آلية تنفيذ وجداول زمنية، رهن نيات القاتل شارون وقدرة أبي مازن وطبيعة الموقف الذي سيتخذه الرئيس ياسر عرفات. وهذا سمح بإعادة انتاج سيناريو معروف ومكرر: ضغوط، لقاءات، تناقضات، عمل عسكري، فشل.

فقد أدت ديبلوماسية الاغتيال التي اعتمدها القاتل شارون الى اغتيال خطة «خرطة الطريق» وإلغاء انجازات الرئيس الأميركي في قمتي شرم الشيخ والعقبة وضرب هيبة الرئيس الأميركي.

في المقابل جاء تحرك بعض الفصائل الفلسطينية - حركة حماس بخاصة - التي استفزها تداعي سقف المطالب الوطنية الفلسطينية كما عبّر عنها خطاب رئيس الوزراء الفلسطيني، نتيجة فرض التصور الأميركي المتسق مع برنامج الإدارة للاقليم، القائم على: انماء الصراع قبل حصول الفلسطينيين على حقوقهم الوطنية المشروعة (دولة ذات سيادة وحق اللاجئين في العودة والتعويض) بعد التسليم بيهودية دولة اسرائيل ومترتبات ذلك، ودعوة الدول العربية الى تطبيع علاقاتها مع دولة اسرائيل ومحاربة «الارهاب»، بالتفسير الأميركي - الفصائل التي تتبنى رؤية عقائدية في ادارة الصراع تتجاهل الشروط الواقعية وموازين القوى السياسية والعسكرية التي سارعت الى اعلان قطع الحوار مع رئيس الوزراء الفلسطيني ووضعت للعودة الى الحوار شرطاً يجرد رئيس الوزراء من الصدقية والشرعية: العودة عن اعلانه في العقبة.

تتبنى حركة حماس خطاباً جذرياً عالي النبرة يعتمد على الإرادة أكثر من اعتماده على حسابات وإمكانات واقعية. أولويته سحب القرار الفلسطيني من يد القيادة التاريخية للشعب الفلسطيني أو مشاركتها فيه، فقد أعلنت عن ضرورة تشكيل قيادة جديدة للشعب الفلسطيني، واعتبار منظمة التحرير احد الخيارات وليس الخيار الوحيد، واعتبرت احد انجازات انتفاضة الأقصى «ان منظمة التحرير لم تعد الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، كما جاء على لسان الدكتور محمود الزهار، واستثمار مشاعر المواطنين الفلسطينيين التي تؤججها الوحشية الاسرائيلية المدعومة أميركياً والتخاذل العربي، ورفع شعارات معزولة عن اللحظة السياسية وأدوات تحقيقها، كوسيلة لاستقطاب الجماهير - كرر الدكتور الرنتيسي مراراً دعوة الاسرائيليين الى العودة من حيث أتوا وكأن قواته تحاصر تل أبيب وصواريخ القسام تشل الهيمنة الأميركية على القرار الدولي - وهي ادارة وشعارات تجعل اليمين الإسرائيلي يطير فرحاً لأن هذه الشعارات والممارسات تعيد الى صدارة جدول أعمال اسرائيل والقوى الدولية الداعمة لها، مقولة صراع الوجود الذي شكّل لحمة الاسرائيليين واليهود ويبرر الوحشية الاسرائيلية ضد الفلسطينيين.

يتجلى مأزق الخطاب الجذري الفلسطيني في غياب الإحساس بالواقع حيث لا تشير المعطيات الملموسة الى قرب نهاية الصراع لمصلحة أحد الطرفين. فالصراع العربي - الاسرائيلي، بخاصة في فصله الفلسطيني، صراع مرتبط بعوامل كثيرة وكبيرة تجعله، نتيجة حجم القوى التي تدعم المشروع الاسرائيلي، وصمود الشعب الفلسطيني وبسالته، صراعاً ممتداً، وتجعل حسمه بالضربة القاضية أمراً مستحيلاً.

وهذا يرتب أهمية تسجيل النقاط على طريق النصر، ويجعل أخذ الواقع في الاعتبار ضرورة لحُسن ادارة صراع لا يقود الى الانتحار ويسمح، في الوقت ذاته، باستمرار المقاومة والصمود وتسجيل النقاط.

ان اتفاق السلطة الوطنية الفلسطينية وفصائل المعارضة على برنامج سياسي مرحلي وتشكيل قيادة مشتركة تدير الصراع لتحقيق برنامج دولة مستقلة ذات سيادة في الضفة والقطاع وحق اللاجئين ضرورة لمواصلة النضال الفلسطيني من دون انتكاسات قاتلة.

* كاتب سوري.

ألف وجه لألف عام

ليوناردو دافنشي: هل اخترع الطائرة والمظلة حقاً؟

■ يحدث في بعض الأحيان أن تُقدم نشاطات ليوناردو دافنشي الإبداعية في مجال الاختراعات والهندسة وتصميم الآلات، على أنها مجرد شطحات فنان كان، لفرط ما «يغالي في تقدير عبقريته ومواهبه» يريد أن يحشر أنفه في كل شيء. وفي هذا الإطار نُظر أحياناً الى التصاميم التي وضعها صاحب «الموناليزا» لعدد من الآلات الحربية، على أنها ابتكارات شغل بها أوقات فراغه وتنتمي الى عالم الخيال - العلمي. غير ان هذه النظرة غير صحيحة، على الاطلاق. ذلك ان مخترعات دافنشي العلمية والتقنية، والتي اشتغل عليها تحديداً خلال الأعوام الوسطى في ثمانينات القرن الخامس عشر (وبخاصة بين عامي ١٤٨٢ و١٤٨٦)، لم تكن مجانية ولا كانت شطحات، بل كانت محاولات جدية للوصول الى ابتكار عتاد حربي ووسائل انتقال يمكن لمدينة ميلانو التي كان انتقل اليها في ذلك الحين أن تنفذها ما يساعدها، في رأي دافنشي، على تحقيق انتصارات عسكرية. وكان دافنشي ينطلق في هذا التفكير من مبدأ بدأ يتفشى في ذلك الحين وفحواه، أن الحروب المقبلة لن تكون حروب شجاعة فردية وقوة جنود مبنية على تخطيطات عبقرية لقادة متميزين، بل ان الإنسانية دخلت عصراً يجب أن تعتمد فيه الحروب أكثر وأكثر على التقنيات والأعتدة المعقدة، كما على وسائل اتصال وانتقال لا عهد للبشرية بها من قبل. والمرجح أن دافنشي فكر بهذا كله منذ عام ١٤٧٢ حينما وقع بين يديه كتاب لروبرتو فالتاريو عنوانه «عن الملوك العسكريين» وفيه بداية حديث عن ضرورة أن تكون الهندسة وصناعة الآلات جزءاً من نشاط الملوك العسكري، استعداداً لمستقبل تقني لا مراء في قدومه.

● وهكذا حينما قدم ليوناردو دافنشي الى ميلانو آتياً من فلورنسا ليقيم هناك ويعمل، حتى من دون أن يكون استكمل لوحة «التبجيل»، كان ثمة هدفان متوازيان من اقامته في ميلانو التي كانت تعتبر من أكبر حواضر أوروبا في ذلك الحين: تحقيق تمثال ضخم يمثل الطاغية فرانشسكو سفورزا راكباً حصانه، بتمويل من لودوفيكو ايل مورو، حاكم ميلانو الذي أراد بذلك أن يكرم ذكرى والده، من ناحية، واقناع حاكم ميلانو بصواب أفكاره عن الأسلحة الجديدة التي كان بدأ يرسم لها مخططاتها. وهكذا بالتزامن مع بدء اشتغاله على التمثال، أكمل رسمه لواحدة من أعظم لوحاته في ذلك الحين «عذراء الصخور»، راح دافنشي يشتغل جدياً على تصميماته الهندسية. ونعرف طبعاً ان ذلك الاشتغال ترك لنا جملة مشاريع، قد يبدو بعضها اليوم مضحكاً، بينما تتجلى عقلية الابتكار في بعضها الآخر، علماً أن القرون التالية شهدت ولادة أشكال متطورة وحقيقية من كل الابتكارات التي كان دافنشي رائداً فيها، ومن بينها الدبابة، والمظلة (الباراشوت)، والطائرة المروحية... وخصوصاً الطائرة العادية.

● صحيح ان في امكاننا أن نقول ان دافنشي لم يحقق، بالفعل، أياً من تلك الاختراعات، إذ نعرف أن المسألة، في نهاية الأمر، لا تتعلق في مثل هذا المجال من الابتكار، بعبقرية الفرد وحدها، إذ يتعين ان تتضافر هذه مع تقدم تقني وصناعي، وتحسن في صنع المعادن وغيرها من المواد، وفي استخدامها. لكن رسومات الرجل تظل شاهدة على أفكار واتته باكراً، عن اختراعات احتاجت البشرية الى الانتظار قروناً أخرى قبل أن «تخترعها» بالفعل. وفي مقدم هذه الأفكار أفكار دافنشي عن الطائرة.

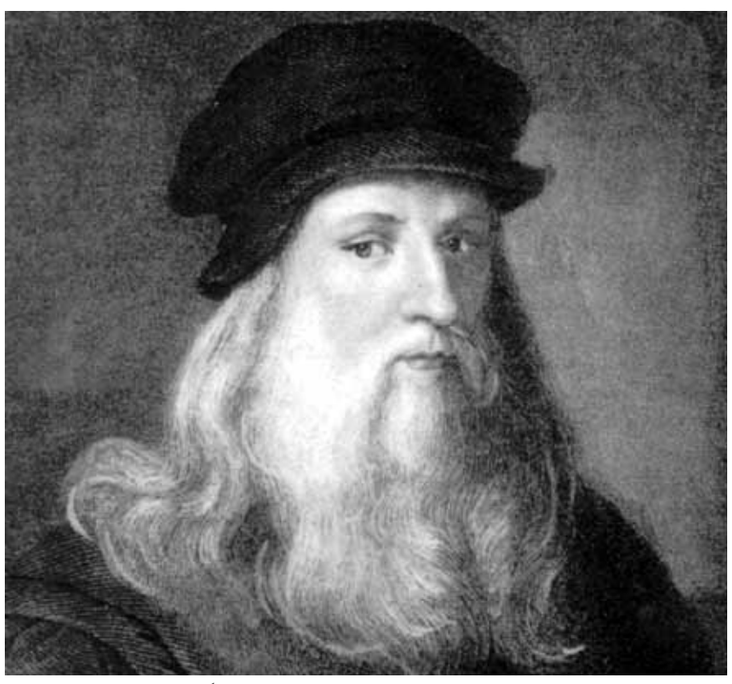

ليوناردو دافنشي: هل اخترع الطائرة والمظلة حقاً؟

● نعرف طبعاً ان الإنسان كان، منذ ايكار على الأقل، يحلم بأن يطير في الفضاء. ونعرف أن عالماً عربياً هو عباس بن فرناس، واتته هذه الرغبة وسعى يوماً الى تحقيقها. غير ان «مغامرة» دافنشي في هذا المجال تبدو مختلفة تماماً: بالأحرى تبدو مفتتحة للأزمان الجديدة، الأزمان التي لا يعود معها طيران الإنسان رغبة شاعرية أو خيالية، أو محاولات فردية قاتلة، بل علماً يُشتغل عليه بكل جدية، عبر أرقام وتخطيطات تجعل الأمر ممكناً حتى وان تأخر تنفيذه. وفي هذا الإطار قد يكون علينا أن نلاحظ هنا ان أفكار دافنشي في هذا المجال تبدو، نظرياً وهندسياً، شديدة القرب من الأفكار التي أدت في القرون التالية الى انتاج الآلات، لا سيما الطائرة.

● إذاً بالنسبة الى أفكار «الطائرة» لا شك أن جرأة ليوناردو دافنشي الفكرية لعبت دوراً كبيراً في مشروعه... ومع هذا يجمع اليوم دارسو حياة الرجل على أنه، حتى وإن كان المبدأ صحيحاً، فإنه انفق سنوات عدة من حياته وهو يتبع خيطاً، كان من المستحيل أن يوصله الى أي مكان. هنا نقول ان دافنشي انطلق، في الأصل، انطلاقة صحيحة، إذ أنه أمضى في البداية وقتاً طويلاً، وهو يرصد حركة الطيور، ويدرس ديناميكية الهواء وثقله وعلاقة ذلك بالجاذبية الأرضية، وبعد هذا نراه يشتغل على تشريح أجنحة الوطاويط (الخفاش) وغيرها من الطيور لدراسة علاقة حركتها وخفتها بالدينامية الهوائية... لكنه بدلاً من أن يتبع هذا الخط الصحيح، نراه في لحظة يتجاوز هذا كله ليغرق في دراسة أمور من المفترض أنها يجب أن تكون لاحقة: مثل موقف الطيار إذا جابهته غيوم حجبت عنه الرؤية، وضرورة الوصول الى صنع المظلة، التي إذ صممها على شكل هرم من قماش يمكن اعتبار رسومها اليوم أول رسوم في التاريخ لمظلة يمكن استخدامها... لكنه في المقابل عجز تماماً عن الوصول الى أسلوب يرفع الآلة من على الأرض ليحلق بها في الفضاء، وعجز عن الوصول الى أي حل لمشكلة الوقود... لذلك اكتفى بأن يجعل قوة الإنسان وعضلاته، الوقود المسير للآلة، مع العلم أن وزن الإنسان المفترض أن يطير بتلك الآلة، يقل بمقدار ٨٧ في المئة عن وزن الآلة نفسها، ما يجعل من المستحيل عليه تشغيلها. والحال أن هذا ما كان عليه دأب دافنشي بالنسبة الى هذا النوع من الاختراعات. فمثلاً، الدبابة التي صنعها جيدة نظرياً، وقادرة على إلحاق الهزيمة العسكرية بالأعداء... ولكن كيف ستتحرك هذه الآلة؟ انها من الثقل حيث يحتاج الأمر الى عشرات الرجال الأقوياء لكي يحركوها... وحتى هنا لن تكون حركتها سريعة، بل شديدة البطء ما يجعل الأعداء قادرين على اصطيادها بكل سهولة.

● والحال ان هذا كله يجعل «اختراعات» ليوناردو دافنشي عصية على التنفيذ العملي، ومن هنا لم يحفظ لنا التاريخ أي تجربة فعلية لأي آلة من آلاته، حتى وان كان بعض المصادر يذكر تجربة يتيمة للطيران بآلة صنعها دافنشي وبعض مساعديه، فوق قمة جبل صغير يدعى جبل تشيتشيري بالقرب من ميلانو، ولكن من الواضح ان ليس ثمة أبداً ما يؤكد حدوث هذه التجربة بالفعل، كما ان ليس ثمة ما يؤكد صنع أي آلة من الآلات التي صممها دافنشي.

● وانطلاقاً من هذا يمكن الاكتفاء بتبجيل دافنشي، المخترع، نظرياً، والوقوف بدهشة أمام تصميمات إذا نظرنا اليها اليوم سنجدها فعلاً تبدو كأنها تصميمات لآلات ممكنة الصنع. وفي هذا الاطار، النظري، في هذا المجال، تتجلى في الواقع عبقرية ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) الذي كان، رساماً ونحاتاً ومفكراً وممهداً للتفكير العلمي والعملي، واحداً من كبار النهضويين الذين عرفهم التاريخ، لا سيما في ايطاليا. وحتى اليوم لا يزال ليوناردو دافنشي، منافس مايكل انجلو، واحداً من كبار الرسامين، علماً أن واحدة من لوحاته، وهي «الموناليزا» أو «الجوكوندا» تعتبر، شعبياً، أشهر و«أجمل» لوحة في تاريخ فن الرسم، بابتسامة صاحبتها الرائعة الخلابة، حتى وإن لم تكن - بالطبع - أعظم أعمال هذا الفنان الذي كانت قصة حياته نفسها «عملاً» فنياً رائعاً أيضاً.

ابراهيم العريس